

تفسير ابن كثير

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا

وقوله : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) يقول تعالى -

مخبرا عن هول يوم القيامة وشدة أمره وشأنه : فكيف يكون الأمر والحال يوم القيامة

وحين يجيء من كل أمة بشهيد - يعني الأنبياء عليهم السلام ؟ كما قال تعالى : (وأشرقت

الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء [وقضي بينهم بالحق وهم لا

يظلمون]) [الزمر : 69] وقال تعالى : (ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من

أنفسهم [وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة

وبشرى للمسلمين]) [النحل : 89] . قال البخاري : حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا

سفيان ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن عبيدة ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال لي

النبي صلى الله عليه وسلم " اقرأ علي " قلت : يا رسول الله ، أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال

: " نعم ، إني أحب أن أسمعه من غيري " فقرأت سورة النساء ، حتى أتيت إلى هذه

الآية : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) قال : "

حسبك الآن " فإذا عيناه تذر فان . ورواه هو ومسلم أيضا من حديث الأعمش ، به وقد روي
من طرق متعددة عن ابن مسعود ، فهو مقطوع به عنه . ورواه أحمد من طريق أبي حيان ،
وأبي رزين ، عنه . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا ، حدثنا الصلت بن
مسعود الجحدري ، حدثنا فضيل بن سليمان ، حدثنا يونس بن محمد بن فضالة الأنصاري
، عن أبيه قال - وكان أبي ممن صحب النبي صلى الله عليه وسلم : أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم أتاهم في بني ظفر ، فجلس على الصخرة التي في بني ظفر اليوم ، ومعه
ابن مسعود ومعاذ بن جبل وناس من أصحابه ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم قارئاً فقراً ،
فأتى على هذه الآية : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا)
فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اضطرب لحياه وجنباها ، فقال : " يا رب هذا
شهدت على من أنا بين ظهريه ، فكيف بمن لم أراه ؟ " . وقال ابن جرير : حدثني عبد الله
بن محمد الزهري ، حدثنا سفيان ، عن المسعودي ، عن جعفر بن عمرو بن حريث عن
أبيه عن عبد الله - هو ابن مسعود - (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد) قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : " شهيد عليهم ما دمت فيهم ، فإذا توفيتني كنت أنت

الرقيب عليهم " .وأما ما ذكره أبو عبد الله القرطبي في " التذكرة " حيث قال : باب ما جاء في شهادة النبي صلى الله عليه وسلم على أمته : قال : أخبرنا ابن المبارك ، أخبرنا رجل من الأنصار ، عن المنهال بن عمرو ، حدثه أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : ليس من يوم إلا تعرض على النبي صلى الله عليه وسلم أمته غدوة وعشية ، فيعرفهم بأسمائهم وأعمالهم ، فذلك يشهد عليهم ، يقول الله تعالى : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) فإنه أثر ، وفيه انقطاع ، فإن فيه رجلا مبهما لم يسم ، وهو من كلام سعيد بن المسيب لم يرفعه . وقد قبله القرطبي فقال بعد إيراده : [قد تقدم] أن الأعمال تعرض على الله كل يوم اثنين وخميس ، وعلى الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة . قال : ولا تعارض ، فإنه يحتمل أن يخص نبينا بما يعرض عليه كل يوم ، ويوم الجمعة مع الأنبياء ، عليهم السلام . وقوله (يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض) أي : لو انشقت وبلعتهم ، مما يرون من أهوال الموقف ، وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ ، كقوله : (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه] ويقول الكافريا ليتني كنت ترابا [) وقوله (ولا يكتمون الله حديثا) أخبر عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما

فعلوه ، ولا يكتمون منه شيئاً . قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا حكام ، حدثنا عمرو ، عن مطرف ، عن بن عمرو ، عن سعيد بن جبير قال : أتى رجل ابن عباس فقال : سمعت الله ، عز وجل ، يقول - يعني إخباراً عن المشركين يوم القيامة أنهم قالوا - : (والله ربنا ما كنا مشركين) [الأنعام : 23] وقال في الآية الأخرى : (ولا يكتمون الله حديثاً) فقال ابن عباس : أما قوله : (والله ربنا ما كنا مشركين) فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا : تعالوا فلنجحد ، فقالوا : (والله ربنا ما كنا مشركين) فحتم الله على أفواههم ، وتكلمت أيديهم وأرجلهم (ولا يكتمون الله حديثاً) وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن رجل عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : أشياء تختلف علي في القرآن . قال : ما هو ؟ أشك في القرآن ؟ قال : ليس هو بالشك . ولكن اختلاف . قال : فهات ما اختلف عليك من ذلك . قال : أسمع الله يقول : (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) [الأنعام : 23] وقال (ولا يكتمون الله حديثاً) ; فقد كتموا ! فقال ابن عباس : أما قوله : (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) فإنهم لما رأوا يوم القيامة أن الله

لا يغفر إلا لأهل الإسلام ويغفر الذنوب ولا يغفر شركا ، ولا يتعاضمه ذنب أن يغفره ،
جحد المشركون ، فقالوا : (والله ربنا ما كنا مشركين) ; رجاء أن يغفر لهم . فحتم الله
على أفواههم ، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، فعند ذلك : (يود الذين
كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا)